الهجرة بين القرآن والسنة

جاء فى « معجم مقاييس اللغة » أن مادة « هجر » لها أصلان ، أحدهما يدل على قطع أو قطيعة ، والآخر يدل على شد شيء أو ربطه ، وهاجر القوم من دار إلى دار : تركوا الأولى للثانية ، وإذا كانت الهجرة فى الأصل مشتقة من الهجر ، وهو ضد الوصل ، فإن الكلمة قد غلبت على الخروج من أرض إلى أرض . والمهاجر بفتح الجيم هو موضع الهجرة . والتهجير : التبكير إلى الشيء ، وفى الحديث : « لو يعلم الناس ما فى التهجير لاستبقوا إليه » . والهُجْر – بضم فسكون – هو الفحش فى الكلام .

هذا بعض حديث اللغة عن مادة « الهجرة » . فما حديث القرآن الكريم عنها ؟

لقد وردت هذه المادة فى التنزيل المجيد فى ثلاثين موضعاً ، وقد وردت بمعنى الترك والبعد والقطع فى قوله تعالى فى سورة المدثر : « والرُّجْزَ فاهْجُر » (الآية ٥) .

وفى سورة مريم : « لئنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِى مليًّا » (الآية ٤٦) .

وفى سورة المزمل : « واصْبِرْ علَى ما يَقُولُون واهْجُرْهُمْ هجْراً جَمِيلا » (الآية ١٠) .

وفى سورة النساء : « واللَّاتِى تخافُونَ نشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ واهْجُروهنَّ فى المضاجع » (الآية ٣٤) . وفى سورة الفرقان : « وقال الرَّسُول يَاربِّ إنَّ قَوْمِى اتَّخذُوا هذا القُرْآنَ مَهْجوراً » (الآية ٣٠)

وجاءت المادة فى موضع واحد بمعنى الهذيان والقول الفاحش ، فذلك فى سورة المؤمنون : « مُسْتكبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ » (الآية ٦٧) أى تهذون بالطعن فى الآيات .

ولكن الأغلب فى استعمال القرآن الكريم لمادة الهجرة هو أن يراد بها معنى الارتحال والانتقال من مكان إلى مكان ، أو من بلد إلى بلد ، فراراً من ضلال أو أذى ، وطلباً لموطن سكينة وطمأنينة ، وهذه الهجرة هى التى نوه بها القرآن ودعا إليها ، وزكّى سيرتها ، ومدح أهلها ، وذم المتقاعسين عنها بعد لزومها ووجوبها ، ففى سورة النساء نجد هذه الآيات :

« إنَّ الَّذِينَ تَوفَّاهُمُ الملَائِكَةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِم قالُوا : فِيمَ كنتُمْ ؟ قالُوا كنَّا مُسْتضْعَفِينَ فى الأرْضِ . قالُوا : ألَمْ تكُنْ أرْضُ اللهِ واسعةً فتهاجِرُوا فِيها ؟ فأولَئِكَ مأوَاهُم جهنَّمُ وساءَتْ مَصِيراً . إلَّا المستضْعَفِينَ من الرِّجال والنِّساءِ والوِلْدانِ ، لا يَسْتَطِيعُون حِيلةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فأولئكَ عَسَى الله أنْ يعْفُو عنْهُمْ ، وكانَ اللهُ عفُوًّا غفورًا . ومَنْ يُهاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأرْضِ مُراغماً كثيراً وسَعَةً ، ومن يَخْرُجْ من بَيْتِهِ مُهاجرًا إلى اللهِ ورسُولِهِ ثم يُدْرِكهُ الموْتُ فَقَدْ وقَعَ أجْرُهُ علَى اللهِ ، وكانَ اللهُ غَفوراً رَحِيماً » (الآيات ٩٧ – ١٠٠) .

وهذه الآيات تجلو لنا عدة أمور ، منها :

١ – الإسلام يطالب بالهجرة عند التعرض للذل ، أو تعرض العقيدة للضياع .

٢ – من يقدر على الهجرة عند وجوبها ولا يهاجر يعرض نفسه للعذاب الإلهي الأليم.

٣ – العاجزون عن الهجرة لضعف أو قلة حيلة أو مانع قهرى، يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم.

٤ – أرض الله تعالى رحيبة فسيحة، فيها متسع لمن ضاق به جانب من جوانبها أو طغى عليه.

٥ – الهجرة لله كالجهاد فى سبيله، فمن مات وهو على طريقها ضمن له ربه أجر المجاهدين.

ومادام للهجرة فى سبيل الله تعالى هذه المكانة فلا غرابة أن يعطر القرآن الحكيم حديثها، وأن يكرر ذكرها، وأن يمجد أهلها. فنجد فى سورة البقرة: « إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (الآية ٢١٨). وفى سورة آل عمران: « فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا. لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ». (الآية ١٩٥). وفى سورة التوبة: « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (الآيات ٢٠ – ٢٢). وفى سورة النحل: « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (الآيتان ٤١، ٤٢). وفى السورة نفسها: « ثم إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رحيم » (الآية ١١٠).وفى سورة الحج : « والَّذِين هاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ » (الآيتان ٥٨ و ٥٩) .

* * *

وقد فهمنا من آية النساء التى سبقت ، وهى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالِمِى أنفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعةً فتهاجِرُوا فيها فأُولَئِكَ مأواهم جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيراً » أن الممتنع عن الهجرة المطلوبة مع القدرة عليها يكون آثماً ، لأن الهجرة حينئذ تكون واجبة مفروضة ، وقد قال الإمام مالك بوجوبها .

وحينما تعرض جار الله الزمخشرى لتفسير الآية قال فيما قال : « وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر – أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : (من فر بدينه من أرض إلى أرض – وإن كان شبراً من الأرض – استوجبت له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ، ونبيه محمد) عليهما الصلاة والسلام[١].اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى ، فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير ، ودرك المرجو من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك فى دار الكرامة ، يا واسع المغفرة » .

وإذا كانت الهجرة تقع فراراً من شىء أوطلباً لشىء ، فإن كلًّا منهما

---

(١) استشهد الزمخشرى بهذا الحديث ، وقد علق عليه ابن حجر العسقلانى بقوله : « أخرجه الثعلبى فى تفسير العنكبوت ، من رواية عباد بن منصور الناجى عن الحسن مرسلا » .

obeikandi.com

أقسام ، فهجرة الفرار من شيء - كما ذكر ابن العربي - ستة أقسام ، الأول : الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وقد كانت فرضاً فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الهجرة مفروضة باقية إلى يوم القيامة ، والتى انقطعت بفتح مكة هى القصد إلى النبي حيثما كان .

الثانى : الخروج من أرض البدعة ، كأن يكون فيها من يسبون السلف أو يأتون المنكر ، لقول الله تعالى فى سورة الأنعام : « وإذا رأيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنا فأعْرِضْ عَنْهمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غيرِهِ ، وَإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فلا تقْعُدْ بعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقومِ الظَّالِمِينَ » (الآية ٦٨) .

الثالث : الخروج من أرض يغلب عليها الحرام ، لأن طلب الحلال فريضة على كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذية فى البدن ، وهذه رخصة من فضل الله تعالى ، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام . فإنه لما خاف من قومه قال : « إنى مهاجر إلى ربى » وقال : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » . وقال القرآن عن موسى : « فخرج منها خائفاً يترقب » .

الخامس : الخروج لخوف المرض فى البلاد الوخمة ، والانتقال إلى الأرض الطيبة .

السادس : الفرار خوف الأذية فى المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل مثله وأوكد .

والخروج لطلب الشيء قسمان : طلب دين ، وطلب دنيا ، وطلب الدين يتعدد بتعدد أنواعه ، فقد يكون سفراً للعبرة ، لقوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَسِيروا فِي الأرْضِ فينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم » (غافر

الآية ٤٤) . وقد يكون سفراً للحج وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا . وقد يكون الخروج للجهاد وهذا له أحكامه المقررة ، فقد يكون فرض كفاية وقد يكون فرض عين ، وقد يكون السفر لطلب الضروري من أمور المعاش وهذا مفروض عليه شرعاً ، ويجوز السفر لهذا الغرض إذا كان يريد التجارة وكسب الزائد عن القوت ، لقوله تعالى : « لَيْسَ عليكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً منْ ربِّكُم » (البقرة ١٩٨) . وقد يكون الخروج لطلب العلم ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد يكون الخروج بنية العبادة فى أماكن نص عليها الشارع ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى بالمدينة ، والمسجد الأقصى » ، وقد يكون الخروج للمرابطة فى الثغور ، وقد يكون لزيارة الإخوة فى الله بنية الحب فى الله تعالى .

وأما الخروج لطلب الدنيا فأنواعه كثيرة تختلف باختلاف مقاصد العباد وتنوع البلاد .

ولقد أورد « تفسير المنار » رأى الإمام محمد عبده فى الهجرة . بعد أن ذكر خلاف الفقهاء فى وجوبها وبقائه أو عدم بقائه ، ونص على أن المالكية يقولون بالوجوب ، ثم قال : « ولا معنى عندى للخلاف فى وجوب الهجرة من الأرض التى يُمنع فيها المؤمن من العمل بدينه ، أو يؤذى فيها إيذاءً لا يقدر على احتماله ، وأما المقيم فى دار الكافرين ، ولكنه لا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه ، بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، وذلك كالمسلمين فى بلاد الإنكليز لهذا العهد ، بل ربما كانت الإقامة فى دار الكفر سبباً لظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه » .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن الهجرة مصرحاً بمادتها فى عدة مواطن منه ، فإنه قد تحدث عنها فى مواطن أخرى بمادة « الإخراج » ، فقال فى سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ » (الآية ٢١٧) . وقال فى سورة التوبة : « أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » (الآية ١٣) . وقال فى سورة محمد : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ » (الآية ١٣) . وقال فى أول سورة الممتحنة : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي » وفى سورة الأنفال : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » . (الآية ٣٠) .

وليس المراد من إخراج المشركين للرسول والمؤمنين المهاجرين من ديارهم بغير حق ، أن المشركين تولوا طردهم وإخراجهم بالفعل ، مجتمعين أو متفرقين ، فإن كثيراً من المهاجرين قد خرج مستخفياً ، كما خرج النبى عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وإنما المراد أنهم كانوا سبباً فى هجرة هؤلاء المؤمنين بالكفران الذى كان من المشركين وعنادهم واضطهادهم للمؤمنين وإيذائهم للمستضعفين منهم .

ولا شك أن أفضل أنواع الهجرة التى تحدث عنها القرآن الكريم هى هجرة سيد البشرية وإمام الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه . ولقد تجلت فى حادث الهجرة عناية الله تعالى برسوله وحفظه له . وحسبنا أن

نسمع فى ذلك قول الحق جل جلاله فى سورة التوبة : « إلا تنْصُروه فقَدْ نَصَرهُ الله ، إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ ، إذْ هُما فى الغَار ، إذْ يقُولُ لِصاحِبه لا تَحْزَن إنَّ اللهَ مَعَنا فأنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيه وأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وجَعَلَ كلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وكَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيا واللهُ عزيزٌ حَكِيمٌ » (الآية ٤٠) .

ولو عرفنا الظرف الدقيق الحرج الذى كانت عنده الهجرة لأدركنا مبلغ عناية الله بنبيه ، ولرأينا مبلغ المكر الأثيم الذى أراده المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، وأبو نعيم والبيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس رضى الله عنه ، روايات منها هذه الرواية التى نقلها السيوطى فى « الدر المنثور » ، عن ابن عباس قال :

إن نفراً من قريش ، ومن أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعتُ بما اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم منى رأى ونصح . وقالوا : أجل فادخل . فدخل معهم فقال :

انظروا فى شأن هذا الرجل ، فوالله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره . فقال قائل : احبسوه فى وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدهم .

فقال عدو الله الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ،

فانظروا فى غير هذا الرأى .

فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وكان أمره فى غيركم .

فقال الشيخ النجدى : لاوالله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن عليه ، ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله ، فانظروا رأياً غير هذا .

فقال أبوجهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره .

قالوا : وما هذا ؟

قال : نـأخذ من كل قبيلة غلاماً وسطاً شاباً نهدًا ، ثم يُعْطَى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى ، القول ما قال الفتى لا أرى غيره.

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك فى الخروج ، وأمرهم بالهجرة ، وافترض عليهم القتال ، فأنزل الله « وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

ويَمْكُرُونَ ويَمْكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرِينَ » (سورة الأنفال الآية ٣٠) .

• • •

ومن الملامح التي نلحظها في حديث القرآن الكريم عن الهجرة أنه يقرنها بالإيمان في كثير من المواطن ، وكأنه يشير بذلك إلى أن الهجرة ثمرة من ثمرات الإيمان ، لأن من آمن بالله واستجاب له ، يخرج مهاجراً في سبيل ربه ، إذا رأى أن في هذه الهجرة نصراً لدينه أو حماية لعقيدته ، ولذلك نجد القرآن في سورة البقرة يقول : « إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ أُولئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رحيم » (الآية ٢١٨) . ويقول في سورة التوبة : « الَّذِينَ آمَنُوا وهاجرُوا وجاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِم أعْظَمُ دَرَجةً عِنْدَ اللهِ وأولئِكَ هُمُ الفائِزُون » . (الآية ٢٠) وفي سورة الممتحنة : « يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جاءكُمُ المؤْمِناتُ مُهاجراتٍ فامْتحِنُوهُنَّ اللهُ أعْلَمُ بإيمانهنَّ فإنْ عَلِمتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الكُفَّارِ لا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ ولا هُمْ يحلُّونَ لَهُنَّ » . (الآية ١٠) .

وأحياناً يشير القرآن الكريم إلى الإيمان المطلوب مع الهجرة ، فيذكره بغير لفظه ، كما إذا وصف الهجرة بأنها في الله ، أو في سبيل الله ، لأن ذلك يقتضي الإيمان ، ففي سورة النساء : « ومن يُهاجِرْ في سَبِيلِ اللهِ » . وفي سورةِ النحل : « والَّذِينَ هاجَرُوا في اللهِ » . وفي سورة الحج : « والَّذِينَ هاجَرُوا في سبيل الله . . » . وفي سورةِ النور : « ولا يأتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أن يُؤْتُوا أولِي القُرْبَى والمساكِينَ والمُهاجِرِين في سَبِيلِ اللهِ » . وفي سورة العنكبوت : « فآمَنَ لَهُ لوطٌ وقالَ إنِّي مهاجِرٌ إلى رَبِّي إنَّه هوَ العزيزُ الحَكِيمُ » . (الآية ٢٦) .

ولأن الهجرة تستلزم الإيمان جاء في حديث عمر رضي الله عنه — كما في

النهاية - أنه قال : « هاجروا ولا تهجَّروا » أى أخلصوا الهجرة لله تعالى ، ولا تتشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم أو إيمان عندكم .

والقرآن يرينا مدى الارتباط بين الإيمان والهجرة ، حين يحدثنا فى أواخر سورة الأنفال عن أقسام المؤمنين الموجودين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيشير إلى أهم أربعة أصناف :

الصنف الأول : صنف المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل غزوة بدر ، وهؤلاء هم أفضل الأصناف .

الصنف الثانى : هم الأنصار الذين آووا المهاجرين ونصروهم ، وهذا الصنف يرتبط بالصنف السابق برابطة التعاون والتناصر وتبادل الولاية فيما بينهم ، فكل منهم ناصر لأخيه ، فهم يتشاركون ويتكافلون .

الصنف الثالث : صنف المسلمين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا باختيارهم بين المشركين فى دار الحرب ، وهؤلاء لا يثبت لهم شىء من ولاية المسلمين المستقرين فى دار الإسلام ، اللهم إلا إذا كان هناك اضطهاد لهم بسبب دينهم من المشركين .

الصنف الرابع : هم الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى ، وهذا الصنف يلحق بمن سبقه من المهاجرين والأنصار .

يقول الله تعالى فى تلك الأصناف :

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فى سبيلِ اللهِ ، والَّذِين آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ بعْضُهمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ ، والَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهاجِرُوا مالَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حتَّى يُهَاجِرُوا ، وإن اسْتَنْصَرُوكُمْ فى الدِّينِ فعلَيْكُمُ النَّصْرُ إلَّا عَلى قَوْمٍ بيْنَكُمْ وبيْنَهُم ميثاقٌ ، واللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ . والَّذين كفَرُوا بَعْضُهمْ أَوْلياءُ بعْضٍ إلَّا تَفْعلوهُ تكُنْ فِتْنَةٌ فى الأرْضِ وفسادٌ

obeikandi.com

كَبِيرٌ . والَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ ، والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقًّا ، لهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ ، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بعدُ وهَاجَرُوا وجاهَدُوا معكُمْ فأُولئِكَ مِنكُمْ ، وأُولُوا الأَرْحَامِ بعْضُهمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ ، إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » . (الأنفال الآيات ٧٢ – ٧٥) .

ويقرب من هذا ما ذكره الله تعالى فى سورة الحشر ، حيث يقول عن طوائف من المؤمنين السابقين واللاحقين :

« للفقراءِ المهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً وَيَنصرُونَ اللهَ ورسولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحِبُّون من هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، ولا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا ، ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ . والَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ ربَّنا اغْفِرْ لنَا ولإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ ولَا تجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . (الآيات ٨ – ١٠) .

* * *

هذا بعض حديث الهجرة فى القرآن الكريم .

ثم يأتى حديث الهجرة فى السنة المطهرة :

لعل أول ما يشد أفكارنا وأنصارنا هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فهذا الحديث صريح فى الدلالة على أن الهجرة الشرعية المحمودة عند الله تعالى هى الهجرة المخلصة القائمة على الإيمان وصدق الاستجابة

لله وللرسول ، وكأن هذا تأييد لما لمحناه من قرن التنزيل المجيد الهجرة بالإيمان فى مواطن كثيرة .

ولقد تعرض شبهة التعارض بين قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » وقوله فى حديث آخر : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » . ولكن ابن الأثير يجمع بين الحديثين بقوله « الهجرة هجرتان : إحداهما التى وعد الله عليها الجنة فى قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، فكان الرجل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدع أهله وماله ، لا يرجع فى شىء منه ، وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن يموت الرجل بالأرض التى هاجر منها ، فمن ثَمَّ قال : « لكن البائس سعد بن خولة » يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة ، وقال حين قدم مكة : « اللهم لا تجعل منايانا بها » . فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة .

والهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين . ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك الهجرة ، وهو المراد بقوله : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » .

فهذا وجه الجمع بين الحديثين ، وإذا أطلق فى الحديث ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة » .

° ° °

ويظهر لنا من السنة كذلك أن التوجيه الإلهى إلى الهجرة كان سابقاً على تنفيذها بمدة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت فى المنام

أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وَهَلى إلى أنها اليمامة أو هَجَر ، فإذا هى المدينة : « يثرب » . واليمامة هنا مدينة من اليمن على مرحلتين من الطائف ، وهجر بلد من البحرين ، كان فيها مساكن عبد القيس .

وقال النبي فى حديث آخر : « إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » فهاجر من هاجر إلى المدينة ، وعاد المهاجرون إلى الحبشة منها إلى المدينة . والحرة هى الحجارة ذات اللون الأسود .

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ذات شأن وجلال ، فإن السنة المطهرة تحدثنا بأن هناك هجرة أخرى ذات شأن وجلال . فقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال :

بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا وإخوان لى أنا أصغرهما ، أحدهما أبو بردة ، والآخر أبورُهْم ، فى بضع وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة ، فألقتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوجدنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعثنا ههنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا .

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، فقسم لهم معهم ، فقال بعض الناس لنا : نحن سبقناكم بالهجرة .

فدخلت أسماء بنت عميس على حفصة رضى الله عنها تزورها ، فدخل عمر عليهما فقال : من هذه ؟

فقالت : أسماء بنت عميس .

فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

obeikandi.com

فقالت أسماء : نعم .

فقال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم .

فغضبت وقالت : كذبت يا عمر ، كلا والله . كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض البَعَداء البُغَضاء فى الحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ؛ وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نُؤْذَى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا ، يسألونى عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت : فكان أبو موسى يستعيد هذا الحديث منى[١] .

◦ ◦ ◦

وبعد ، فإذا كان هناك خلاف فى فرضية الهجرة الحسية من مكان إلى مكان على توالى الزمان ، فإنه لا خلاف هناك على الهجرة المعنوية الروحية ، فإنها واجبة على المؤمن دائماً ، وهجرة الروح هى أن يولى الإنسان وجهه وقلبه

(١) انظر كتاب « فدائيون فى تاريخ الإسلام » ص ٢٢٤ .

دائماً إلى طاعة ربه واتباع رسوله ، ولذلك يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « طريق الهجرتين » إن المسلم « له فى كل وقت هجرتان : هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء ، والإقبال عليه ، وصدق اللجأ والافتقار فى كل نفس إليه .

وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محابِّ الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها ، لا زاد معاد

وقد قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه : الطرق كلها مسدودة ، إلا طريق من اقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن الله عز وجل يقول : « وعزتى وجلالى ، لو أتونى من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » .

صلاة وسلاماً على صاحب الهجرة رحمة الله للعالمين .